النتاج الجديد في الفكر

« قصة نفس » بقلم زكي نجيب محمود . دار المعارف ، بيروت ، ١٩٦٥

عندما قرأت « قصة نفس » تبادر الى ذهني ان اطلق على منهج مؤلفها في كتابة السيرة الذاتية «نظرية الوعي الدائم بالذات في كتابة السيرة الذاتية » ، او المنهج الداخلي القائم على المواجهة الصريحة للنفس اكثر مما يقوم على مجرد سرد الوقائع والتواريخ والاوصاف الخارجية للاحداث التي اطاحت بصاحب الترجمة وكأنه يفارق الحياة دون ان يعيش فيها .

وفي « قصة نفس » رمزية واضحة ، تتمثل من فصلها الاول في « احدب النفس رياض عطا » الذي لا يفارقه احدودابه بل يؤرقه بالليل وبالنهار . انها مسؤولية المفكر في شؤون الحياة والاحياء ، وهو منهم ، فهو يفكر لنفسه وللآخرين على حد سواء . ويزداد هذا العبء بازدياد الحياة خذلانا له ، ولكن الحياة شيء حتمي عليه ان يحياها بالطول او بالعرض ، والاحدب مشدود للواقع بعنف ولكنه يطفو فوق هذا الواقع بشيء من الخيال ، ولكن الخيال لا يسعفه على اي حال فيعتزل وينطوي ويزيد احدودابه . وهو لوعيه الدائم بنفسه وبالآخرين يظل في صراع دائم مع الاشياء والناس . لكنه يثور على احدوداب نفسه فيحاول اصلاح شأنها .

ويذهب حسام الدين محمود الى رياض عطا . ومن خلال الحديث بينهما نحس بان حديثها يشبه المنولوغ الداخلي داخل نفس واحدة ، ولكنه منولوغ دام سنوات ؛ حاول المؤلف فيه ان يصور الصراع الداخلي بين حسام و رياض ، كما حاول ان يصور اوجه الشبه والتقارب الشديد بينهما . وبعملية رائعة من عمليات التحليل الذاتي التي لا تقوى عليها سوى النفوس القوية يعود بذاكرته الى ايامه الاولى ، فلا تعي الذاكرة سوى البارز من الاحداث والحاسم من مواقف الصراع . وهو يحاول ان يتلمس في احداث حياته العوامل التي ادت الى احدوداب نفسه ، فيجد انه « يعيش كمن ينظر الى العالم من ظلال ثقب الباب » ، ميالا الى العزلة والاختفاء ، متعلقا لا بما قد تحقق بل بما كان من الممكن ان يكون . كل هذا مع رغبة متأججة في اقامة البرهان على قدراته الذاتية في مواجهة الآخرين .

ويلجأ المؤلف في هذه المرحلة التحليلية من قصة نفسه الى تتبع الاحداث والربط بينها وبين النتائج ، متلمسا لكل سمة نفسية من سمات رياض عطا حدثا واقعيا في طفولته يرجعها اليه . ولكني اعتقد ان الحياة اعقد من هذا بكثير ، فلا يمكن لحدث واحد من احداث الحياة الواقعية ان ينتج نتيجة واحدة اي سمة نفسية واحدة ، كما لا يمكن ان تكون السمة النفسية الواحدة من نتيجة حدث واقعي واحد . انما شبكة الحياة النفسية من التعقيد بحيث انها تستعصي احيانا على مثل هذا التحليل .

ويواصل المؤلف محاولته في عملية الكشف النفسي عن جوانب نفسه وعن الاحدب فيها بوجه خاص ، فيعرف عن حياته في ميت غمر الشيء الكثير ، فقد كانت حياته في التدريس مليئة بالتفرد والتجديد والعطف الشديد على التلاميذ والتفوق في عمله وبالمواقف الحرجة وعدم فهم المجتمع له وبمحاولاته المستمرة لتنوير الآخرين ، وبدا في نظر الآخرين وكأنه انسان شاذ (يؤمن بالمثل العليا) . ويتساءل حسام الدين محمود عما اذا كان لاحتقار المجتمع لشأن رياض اثر مباشر على احدوداب ؟

ومن خلال عملية الكشف النفسي التي استغرقت القصة من اولها الى آخرها ، يثير حسام الدين مشكلة فلسفية هي من اختصاص الفلاسفة وعلماء النفس : وهي علاقة الذات بالزمان ؛ فهل حقا ان الاحدب وهو طفل ليس هو الاحدب وهو شاب او وهو رجل ؟ او ان هذا تحليل مخل بشعور الانسان

بذاتيته ؟ وعلى حد تعبير المؤلف عن هذه المشكلة، « ليس في جسده – جسد رياض اليوم خلية من خلاياه التي ولد بها ، ولم تكن في رأسه عند ولادته فكرة واحدة مما في رأسه اليوم » . انها مشكلة على اي حال ، وفي اعتقادي ان ذاتية الانسان واحدة مهما توالت عليها السنون والايام ، وانهـا ذاتية لا تتغير ولا تتبدل منذ الميلاد حتى الممات . ولكنها طريقة التفكير وقوة الادراك والانفعال والدور الاجتماعي هي التي تتغير بانتقال الانسان من مرحلة الى مرحلة ، حتى ليخيل للانسان انه شيء آخر غير ما كان .

ويرجع المؤلف الصراع الذي يغانيه رياض عطا الى اختلاف الخلق والطباع بين ابيه وامه ، فهو ضحية التناقض بين امزجة وميول الوالدين . وهو يواجه العالم الخارجي نتيجة لهذا بالانطواء والتشاؤم، وهما وجهان لعملة واحدة ، بل بميل شديد للرهبنة والتصوف . ولكن الاحدب رغم هذا كله لا يرجو لبني قومه ان تسود بينهم هذه الصفات وقد عرف فيها صورا مرضية وليست مجرد صفات .

ويدخل المؤلف مع الاحدب الى اعماق نفسه ، فيرافقه في علاقاته العائلية والمدرسية مع رفقاء اللعب وزملاء الدراسة وبنات الجيران ، فيجد ان علاقته بابيه وموقفه منه هو نفس موقفه من كل سلطان متحكم. واني لاذكر المؤلف محاضرا لنا في علم الاخلاق بالجامعة ، وهو يقول لنا بانفعال ما معناه : « ان الوالد، مثلا، في البلاد الزراعية المتخلفة يعتبر ابنه، كالثور وكالساقية وقطعة الارض ، مصدرا للايراد ليست له ذاتية او شخصية او حياة خاصة لهـا استقلالها عنه » . ويعرف حسام الدين من مذكرات رياض عطا ان مواقف الطفولة ادت به الى الثورة على الاشخاص والنظم طالما لمس فيها شائبة من شوائب الاستبداد او التحكم . بـل يذهب المؤلف خلال استطلاعه لطفولة الاحدب الى ان شخصيته وشخصية اي انسان آخر تتجدد نهائيا حتى السابعة ، وهذه نظرة فرويدية لا اظن انها قضية مسلم بها على اي حال.

وفي كل ما كتبه رياض عطـا عن ايام طفولته ومراهقته وشبابه الباكر في مصر والسودان ، تلمس الصدق كل الصدق والوضوح كل الوضوح والوعي الدائم بالذات ومحاولاته المتصلة المستميتة لتأكيد هذه الذات في مواجهة الآخرين . وهو من خلال تجاربه الدينية والحسية يكتشف ان هناك فرقا دائما بين العقل والوجدان ، وهو يتمنى لو يعيش كسقراط موحد العقـل والوجدان ، ولكن هذا الامر يستعصي عليه .

ثم يتحول المؤلف الى جانب آخر من جوانب هذه النفس الواعية بذاتها وبغيرها دائما . وفي هذا الجزء من القصة تتقارب الشخصيات الثلاث ، بل تتشابه في اكثر من ناحية . ولعل ابرز ظاهرة في حياة رياض عطا في مطلع شبابه هي استغلال الكبار له ولزملائه من الناشئة في ميدان الادب والنشر .

وهنا يظهر مصطفى ، وبظهوره تتوالى آراء المؤلف الفلسفية خلال المناقشات بين رياض و مصطفى و حسام الدين . وكما كان الاحدب يمثل الجانب المزاجي من حياة المؤلف ، جاء مصطفى في الفصل الخامس ليعبر عن الجانب الفلسفي ، وقد اختار الفلسفة موضوعا لدراسته لرغبته في احداث التغيير في القيم السائدة في ذلك الوقت . ولذلك فقد كان معجبا برواد مثل طه حسين و عباس محمود العقاد و سلامة موسى وخاصة في كتابه « حرية الفكر».

والاحدب هو مصطفى ، هو هو حسام الدين محمود ؛ والحياة في نظر هؤلاء جميعا اضداد متزاحمة ورغبات متقاطعة وآمال غير محققة وواقع لا يمكن ان يحلم الانسان به واحلام لا علاقة لها بالواقع . ووسط هذه الزحمة من التناقضات المتقاطعة يمثل الاحدب الجانب الانفعالي الثائر ، ويمثل مصطفى الجانب الفلسفي، ويمثل حسام جانب الضبط والتعقل. ويقول المؤلف على لسان احد ابطاله :« وكأننا نحن الثلاثة جوانب من نفس واحدة متعددة الجوانب، التوى منها جانب ، هو رياض عطـا الاحدب ، واستقام منها جانب ، هو حسام محمود ، وما زال جانب يغامر (في عالم الفلسفة)، هو مصطفى » . ويتعاطف الثلاثة بعضهم مع البعض الآخر، ويحاول حسام الدين ان يقوّم ما احدودب من نفس رياض من خلال تبادل الاحاديث عن الحب والحيـاة ، وكلاهما بل ثلاثتهم قد مزقت روحه تجربة الحب المحروم. وتمضي قصة هذه النفس الفياضة بالاحساس بالحياة والالم لهـا في وقت واحد . ويخلص رياض وحسام من خلال احاديثهما الى ان الحيـاة ثلاث

لحظات لا يشارك الانسان الا في واحدة منها:وهي لحظة الميلاد ، وهي تخص الآخرين دون الفرد ؛ ثم لحظة الزواج ، وهي تخص الفرد ؛ ثم لحظة الموت، وهي تخص الآخرين لان الفرد عاجز عن ادراكها.

واخيرا يعود مصطفى من دراسته في الخارج ويعيش مع صديقيه المتلاصقين فيصبح الثلاثة وكأنهم ثلاثة في واحد . ولكن « حسام قواعد واخلاق، ومصطفى عقل ومنطق، ورياض عاطفة وانفعال»، ولا بد ان يتعايش الثلاثة في منزلهم المشترك . فاية قوة سحرية يا ترى جمعت بين هذه المتناحرات في في دار واحدة بل في انسان واحد، الا اذا كان ما يجمعها هو قلم حكيم نفاذ مثل قلم كاتب القصة ، بان جعلهم رقباء بعضهم على بعض ، وكان هذا هو التكامل الحقيقي داخل هذه النفس الواعية بذاتها وبما حولها ؟ « فاذا اندفع الاحدب بانفعال ثائر الجمته بقواعدي الباردة وفي صحبتنا مصطفى الذي تخلصت نفسه من صراعها بالتفلسف فهدأت ».

ونستطيع ان نعرف زكي نجيب محمود الثائر في مذكرات الدكتور مصطفى العائد من البعثة الثائر على التأخر واهمال الفرد وعلى الظلم الاجتماعي، وهي نفس قيم رياض عطا عندما كان مدرسا في ميت غمر، بل انها يشتركان في نقطة اساسية وهي « ان ترد للانسان كرامته في بلاد ضاعت فيها كرامة الانسان، الا ان يثور في سبيلها الثائرون بالفكر والعلم ثم بالفعل والانقلاب » . ولا بد ان مقالات رياض عطا الثائرة هي نفسها التي تضمنتها كتب اخرى للمؤلف مثل « جنة العبيط » و « الثورة على الابواب » .

ان « قصة نفس » لجديرة بالدراسة المنهجية الشاملة ، فهي وثيقة ادبية وفلسفية وفنية تدين الكثير من التراجم الذاتية . انها ايمان بالانسان — وما اعظمه من ايمان .

رجائي نجيب

في المسرح

« خيال الظل » بقلم رشاد رشدي . سلسلة « المسرحية » ، القاهرة ، ١٩٦٥
« ياسين وبهية » بقلم نجيب سرور . سلسلة «المسرحية» ، القاهرة ، ١٩٦٥
« شفيقة ومتولي » بقلم شوقي عبد الحكيم . الدار القومية ، القاهرة، ١٩٦٥

هدفي من التوفيق بين هذه المسرحيات الثلاث في مراجعة واحدة هو محاولة التثبت من وجهة نظر طالما راودتني منذ عرضت هذه المسرحيات على المسرح الى ان صدرت في كتب ، ذلك انها — في تقديري — تشكل قضية هامة لا يجب ان نمر عليها بدون الوقوف لديها وتفسيرها على ضوء ما اثارته في ذهني: من ان المسرحيات الثلاث تنتمي من قريب او بعيد الى وجداننا الشعبي الاصيل وتستلهم من تراثه اساليب جديدة للتعبير علّها تقربها من اكتشاف شخصية المسرح العربي في مصر . واقول « اساليب » لان كل مسرحية استعارت من ذلك التراث شيئا جوهريا هاما.

فمسرحية « خيال الظل » ، مثلا ، تستعير مفهوم ذلك المسرح الشعبي المسمى باسم المسرحية نفسه ، وبمعنى آخر تستعير تلك الارض التي اقامها مسرح خيال الظل في اذهاننا كنمط من الانماط التمثيلية . وفوق هذه الارض تحركت شخوص المسرحية لتعرض علينا خيالات ظلالنا على مسرح حياتنا . واذا كان الانسان يترك ظله خلف ظهره، فان خيال الظل هو انعكاس صورته الى امام . وظل الانسان هو ماضيه، يخلفه الانسان وراءه ومع ذلك تنعكس صورته ، او خياله ، لتواجه الانسان في حاضره . واذا كان من المفهوم بداهة انه من غير الطبيعي ان ينظر الانسان، خلال مضيّه في الطريق، الى خيال ظله المنعكس امامه (اذ انه في هذه الحالة لن يرى ابعد من موضع قدميه وتكون النتيجة — طبعا — ان يجرفه هدير الحركة في الطريق) ، فنفس النتيجة تتحقق بالنظر الى الماضي . والماضي في مسرحية « خيال الظل » يتحول الى ظل اسود